هذا اليوم لاينسى

وقفت واياه لحظة قرب نهر بردى، ورحت أتأمل شمعدانات النور التي تلوّن مياهه المتدفقة كأقواس قزح متأرجحة، هل تزين بردى ليشهد مولد حبي؟ كان قريبا مني حتى لأشم رائحة الدخان المنبعثة من سترته مع رذاذ الماء المتطاير، لماذا أشعر بالنشوة وأنا أشمها أنا التي تكتم رائحة الدخان أنفاسي؟ قال:

-ان هذا اليوم لن ينسى من حياتي!

-ولن ينسى من حياتي..

وتلاحمت يدانا في عناق طويل، وأحسست بالقشعريرة تسري في أوصالي تيارات متلاحقة، وخفق قلبي بعنف وهو يقول:

-أتحبين أن يمتد هذا اليوم الى آخر حياتنا؟ فأجبت في ثقة:

-نعم الى آخر حياتنا!

قلتها بفرح واطمئنان، انه رجلي، الرجل الذي أحلم به، وأرسمه في خيالي، الحبيب المجهول الذي يخطفني خطفا ولا يترك لي مجالا للتفكير.. أتراني لو عاشرته عشرة أعوام أكون أكثر معرفة به مني في هذين اليومين؟

ولكن لم ألبث أن داخلني قلق مبهم، ماذا تراه يفكر بي؟ ماذا يفكر الرجل بفتاة تندفع نحوه بمثل هذه السرعة وتلك اللهفة؟ كان يتحدث ونحن نسير وكلي إصغاء وشغف وروح متفتحة.. أزف الليل، ولكنه ليل مشرق بالكهارب، وخيل الي أن العالم قد تغير، وتحوّل الى ينابيع محبة وشلالات نور لتسعد الإنسان، ما قيمة حياة الفرد ان لم تكن نورا يشع في حياة الناس؟. أليس هذا الإيمان الجديد بالإنسان يفوق كل ايمان؟ أدركت أية رابطة عميقة تربطني الى هذا الرجل، آه وجدت حبي ووجدت معه ايماني!..

شددت على يده بكل لهفة قلبي وقلت:

-سأكافح معك الى آخر الحياة.

وعانق يدي وقبلها ونحن نسير وقال:

-سنكافح مع كل الناس الشرفاء، الصالحين.. ربما لقينا أياما صعبة، ربما شردنا، ربما أعدمنا، فهل أنت مستعدة لاحتمال مثل هذه الحياة؟

وترقرقت الدمعة في عيني وقلت:

-لن أقول لك شيئا، انك ستجربني بنفسك!

دخلنا الى مطعم وكان خاليا في تلك الساعة المبكرة، وجلسنا الى احدى الموائد النائية، وأخذ يدي بيده وضمها الى صدره وابتسم ابتسامته الحلوة والتمعت أسنانه النضيدة الناصعة.. قلت:

-أتعلم أن لك ابتسامة رائعة؟

ضحك وقال:

-كانوا يسمونني La belle sourire أي الرجل الذي ينال بابتسامته ما يريد..

-معهم حق.

-وأنت أتصدقين أنني سمرت في مكاني حين رأيتك لأول مرة عند باب الأركان؟

-أنا أعجبت بك حين سمعتك تتحدث، ان لي ولع بتشبيه الناس بأصناف الحيوان حين أراهم لأول مرة، ربما بسبب قراءتي لكليلة ودمنة مذ كنت صغيرة، لا تضحك علي! خيل الي أنني أرى في وجهك ملامح أسد..

-سامحك الله، ان الأسد حيوان غبي.

-أعني طبيعة العنف التي لديك، أستطيع أن أحزر بأن لك ثورة مخيفة حين تثور.. وضحك طويلا:

-كيف عرفت؟ ولكنني لا أثور أبدا الاّ في الحق..

-ومع ذلك فأنت بالغ الرقة والحنان، ألم أشاهد طيف الدمع في عينيك وأنت تتحدث عن آلام الناس؟ عرفت أيضا أنك عميق الذكاء قوي الملاحظة، وأنك شجاع صلب، وأنك صادق صريح العواطف..

-وماذا عرفت عن عيوبي؟

-ألك عيوب؟

–طبعا، انني لا أخلو منها.. العنف الذي تحدثت عنه أحد عيوبي، يجب أن تعرفي عيوبي لتكوني على نور، أما ما هو حسن فيكون لك مفاجأة حلوة في مقبل الزمن..

وتقدم منا ندل المطعم وسألنا حاجتنا فناولني قائمة الطعام لأختار.. أبي حاجة الى طعام؟ انني أبدا أغتذي بعواطفي وأعصابي فلا ينتابني احساس بالجوع حتى يقرع سمعي صوت أمي تناديني وتلحف بالنداء، فابتسمت وقلت:

–أنا لا معرفة لي سابقة بهذه الأصناف، فاختر ما تحب وليكن خفيفا..

حدثني عن فتاة ألمانية كان قد عرفها في باريس، فقلت لنفسي: "لعله رأى بي صورة الأخرى، ولعل ذلك الحب القديم لا زال مسيطرا عليه. وأحسست بشيء من الضيق.. انني لا أحب أن أكون في خياله ظلا لأحد.. ولكن لم هذا الشعور السخيف؟ وما واجبي اذن ان لم أنسه كل حب قديم؟ ان رجلا بهذه السمرة الشاحبة والابتسامة الرائعة وهذه العبقرية من الرجولة والحيوية، لا يمكن له أن يسير دون أن يوقد حوله القلوب!..

قال بأنها كانت خطيبته، وتركها لأن لها آراء لا تنسجم وآراءه. سألته باهتمام عن تلك الآراء فقال:

–كانت تريد الشهرة بأي سبيل، انها لوثة جنون، أنا لا أحب الأساليب البهلوانية للوصول الى الشهرة.

وصمت قليلا ثم أردف:

–تصوري انها كات تريد أن تجمع الناس وتتحدث عن السلام، ثم تندفع الى الأمام حاملة مشعلا وعلما فيتبعها الناس.. وكنت واياها يوما نحضر أولمبياد هلسنكي، فتركتني وخطفت الشعلة وأخذت في الركض، وأمسكت بالميكروفون وبدأت تتحدث فما لبثت أن طوقتها الشرطة واعتقلتها.. وماذا كان لديها من المؤهلات؟ لا شيء، كانت كسولة جاهلة، تكره الدرس والإطلاع. والسلام، هل هو كلمة فارغة تقال على منبر؟ انه درس واطلاع ومعرفة عميقة بالمجتمعات والأسس الإقتصادية التي يرتكز عليها.. ليس من كائن على الأرض له ذرة من

العقل يحب الحرب من أجل الحرب، والنتيجة أن اشتراها أعداء السلام وقطعت صلتي بها!..

ولم يزد، لم يكن من طبعي أن أحمل انسانا على الكلام فيما يتعلق بشؤونه الخاصة حتى لو كانت بي لهفة لسماعها..

ولم يلبث أن شغل الموائد أوزاع هنا وهناك فخرجنا واقترح أن نذهب الى أحد الأجنحة حيث يشرف أخاه الأكبر العقيد صلاح الذي ترك الجيش واشتغل بالتجارة زمن الشيشكلي على سيارات هو وكيل لها، وكنت قلقة أخشى أن أتأخر فأضطر إما الى البوح بالأمر أو الى التلفيق وأنا لا أحب كلا الأمرين..

نظرت الى ساعتي وقلت: أهو بعيد؟ انني أخشى أن تنسيني نفسي فأتأخر كثيرا.

ضحك وقال مهوّنا عليّ الأمر:

-التأخير مباح في أيام المعرض، الليل نهار حتى الثانية عشرة..

كنا نسير في ذلك الطريق المنعزل وذراعه تطوق خصري، انها ليلة مسحورة بالجمال، الشجيرات والزهر على جانبي الطريق المحصب، والأسهم النارية تزرع في الجو كروما وأعناب نور.. وأخذنا نتحدث عن انطباعاتنا عن الأجنحة التي شاهدناها، ثم ارتقينا مرتفعا الى حيث الجناح، وبدا المعرض من علوّ وكأنه شجرة عيد ميلاد كبيرة، ووقفنا لحظة متلاصقين.. كنت سعيدة مطمئنة قربه كفرخ حمام تظله جناح قوية، ورحت أستنشق الهواء ملء رئتي، الهواء البرود النقي حتى هدأ لهاث صدري..

استقبلنا أخاه عند الباب مرحبا وقال بلهجة يشوبها المزاح:

-هل انتهى الكتاب؟

لذعت بلهجته ولكنني ابتسمت ولم أجب.. كنت قد تعرفت عليه عند زهير الصلح يوم تعرفت على عفيف وكان أول من حدثني عن العقيد محمد ناصر:

-كنت قبيل اغتياله رئيس المكتب الثاني فطلب مني الشيشكلي أن أنتقل الى شعبة أخرى فرفضت. ولم أعرف السبب حينذاك حتى جاء بمن خلفني ليقوم بعملية الإغتيال، وبناء على هذا استقلت من الجيش..

قلت لعفيف ونحن ننتحي ركنا خلف الجناح، والسيارات الحديثة من كل لون وشكل تلتمع على مقربة منا، كان أخوه مشغولا بالزوار وكنا مشغولين بنفسينا:

-ماذا يعني أخوك بتلميحه عن الكتاب، أتراه يحسب أنني أستخدم أدبي لأصطاد به رجلا؟ ضحك وقال:

-دعك من أخي انه يحب أن يمزح!..

-كنت والله قد جئت الى دمشق أحمل روايتي الأولى للنشر ومعي ألف ليرة لأطبعها على حسابي، فوجدت أن طبعها يكلف أكثر مما قدّرت.. وكنت قد قدّمت طلبا للتدريس في السعودية قبل أسبوع من تعرفي اليك، ونصحت أن أغير جنسيتي، وخطر لي أن أشغل نفسي في منفاي هناك بكتابة رواية، ولكن ارادة الحياة عاجلتني، وكنت أهرب منها، واصطادتني وقضت على مشاريعي..

-دعيني أقرأ الكتاب!

-سآتيك به في الغد، فمن حقك أن تقرأه وتعرف كل شيءعني، أنا صادقة فيما رويته، وأظنه يهمك أن تعرف محتواه فهو عن فلسطين التي خضت أنت المعركة للدفاع عنها!..

جاء صبي يحمل صينية عليها شراب البرتقال المثلج.. تعللت برشفة وقلت "انني أسميت روايتي "بستان البرتقال" ومنها تعرف نوع القصة التي أرويها.. انها تقص سيرة الشعب الآمن الذي شرد من أرضه، ولم يحدث أن كتب أحد في هذا الموضوع قبلي.. أحداث فلسطين هي التي فجرت موهبتي الأدبية المبكرة، والحياة لا قيمة لها بالنسبة لي بدون أن أستمر في الكتابة.. كنت أفكر في أحداثها وأنا أنفث دمي والموت مني قيد شعرة، فلما تعافيت سجلتها على الورق.. انها كتاب مفتوح لك لتقرأ دفقات روحي التي أعريها لك قبل كل الناس، ستعرف منها محاسني وعيوبي.. فهات حدثني عن عيوبك لأكون منها على نور فلا وقت لدي لأكتشفها بنفسي، فالمعلمات انتهين من التصحيح، وعلي أن أعود معهن..

-والجنسية؟

-ما عاد لها من مبرر الآن..

–بل لها مبرر بالنسبة لزواجنا.. انها تسهل من الشكليات الي تفرض علـــى الضباط..

تحدث عن عيوبه فأخبرني بأنه حساس جدا ولو جرح فـــلا ينـــدمل جرحـــه بسهولة.. وأقل شيء يجرحه..

–أنا أيضا حساسة جدا، ان شئت أن تعتبرها عيبا، ولو جرحـــت لا ينـــدمل جرحي بسرعة، وأقل شيء يجرحني.

–وغيور!

ماكنت قد جربت هذا الشعور فقلت:

–أعتقد أن الغيرة ليست بعيب فلا يغار الاّ المحب..

ضمني الى صدره وقال:

–لو أزعجتك بغيرتي يوما فلا تلوميني، انني لا أتمالك نفسي..

وغمغمت: "لن أدعك تغار، سأجعلك تثق بي فلا تغار..

وقبلني.. آه كم ستحمل الي هاتان الشفتان من السعادة والهناء!

* * *